

الآدب العام ، وعلاقته بالآدب المقارن .

أ.م.د. علي مجيد البديري

جامعة البصرة / كلية الآداب

استُعملَ مصطلح الآدب العام *general literature* لوسم الكتابات التي يصعب أن تُصنّف تحت أيّ من الدراسات الأدبية، والتي تفوق أهميتها ما يُتناول ضمن نطاق الآدب القومي، ومنها المقررات والمنشورات المعنية بالآداب الأجنبية. ويقصد به أحياناً الدراسات التي تعنى بالاتجاهات الأدبية أو المشكلات أو النظريات العامة في الآدب أو الجماليات. وصُنّفت تحت هذا العنوان مجموعات النصوص والدراسات النقدية والتعليقات التي تتناول مجموعة من الآداب ولا تقتصر على آدب واحد. وهكذا يتطابق الآدب العام أحياناً مع كل دراسة أدبية تركز على التنظير ولا تقتصر أمثلتها على آدب واحد.^(١)

لقد حدد فان تيغم مجال الآدب العام الذي يختلف عن مجال الآدب المقارن في مسألة عدد أطراف المقارنة ، فُتستبعد الدراسات التي تتناول عدة آدابٍ في ضوء علاقةٍ ما - أي ما يعني خروجاً عن المقارنة الثنائية - من مجال الآدب المقارن، لأنّها تنتمي بذلك إلى ميدان الآدب العام.^(٢) ومثلها الدراسات التي تعنى بالكشف عن أوجه التشابه أو الاختلاف فيما بين الآداب القومية المختلفة. فالآدب المقارن ((لا يتناول غير التأثيرات الأكيدة، ويمتنع عن تسجيل المشابهات التي لا يمكن أن تعزى إلى أي تأثير من التأثيرات، سواء لاستحالة هذا التأثير نظراً للزمن أو لغيره، أو لمجرد أنه ليس هناك ما يقوم دليلاً على وجود تأثير بعيد يفسر هذه المشابهات الملحوظة، أما الآدب العام فهو يرى أن مهماهته الأساسية أن يحصي أكبر عدد ممكن من الوقائع الأدبية التي تمثل وجود مشابهات أكيدة في بلدان مختلفة، وأن يحاول تفسير هذه المشابهات بتأثير علل مشتركة))^(٣).

وربما يكون استبعاد دراسة المشابهات مقبولاً في ضوء ما ألزمت به المدرسة الفرنسية نفسها، إلا أنّ ما نراه إيغالاً في التشدد وضيق الأفق هو استبعاد الدراسات التي تتناول تأثر مجموعة من الآداب القومية بمذهبٍ أو اتجاهٍ أدبي ما، من ميادين الآدب المقارن بحجة عدم فائدتها في كتابة تاريخ آدبٍ

(١) ينظر: الآدب المقارن والآدب العام : هنري ريباك ، ضمن كتاب : آفاق الآدب المقارن عربياً وعالمياً: د.حسام

الخطيب، دار الفكر المعاصر - بيروت/ دار الفكر- دمشق ، ط٢، ٢٠٠٣: ٦٠-٦١

(٢) ينظر: الآدب المقارن : فان تيغم: ٤٥

(٣) الآدب المقارن : فان تيغم: ١٩٥

لقومية معينة. وواضح جداً مدى فائدة هذه الدراسات في فهم الظواهر والاتجاهات واستيعابها في ضوء تفاعلها مع واقع بيئات مختلفة، فليس من ضير في نؤرخ للاتجاهات والظواهر، وليس الأمر عديم الجدوى إذا ما درسنا واقع اتجاه أدبي ما أو مذهب فني في ثقافة ما، مقارناً بواقعه في آداب وثقافات أخرى.

ويضع فان تيغم منهجاً للدراسة في الأدب العام، تحت عنواني مناهج الاستقصاء، ومناهج العرض، وهو ما يعني قيام الدراسة على الاستقصاء: وفيه تحدد المسألة المراد دراستها في آداب مختلفة، والزمن أو الفترة التي سيتناولها البحث، وهنا يجب أن يكون الاستقصاء شاملاً لأكبر عدد ممكن من النصوص والوقائع، وفي أكبر عدد من الآداب.

أما المرحلة الثانية من الدراسة فيتم فيها استخلاص النتائج وعرضها؛ فيجمع الباحث ردود الفعل المتشابهة والتأثيرات المتماثلة في الشكل أو المضمون، ويصنفها دارساً إياها من خلال ملاحظة التابع الزمني لحضور المسألة المدروسة فيها.^(٤)

وترى المدرسة الفرنسية أن الأدب العام - بشأنه المستقل هذا - يقدم فوائد عدة للآداب جميعاً فهو:^(٥)
١- يساعد المؤرخ الأدبي لأمة واحدة أن يفهم المؤلف والكتاب الذي هو موضع الدراسة على نحو أكمل. وهو بهذا يعد أعمق فروع الدراسات التاريخية وأبعدها أثراً.

٢- يزيد من فهمنا للتجارب المهمة واللحظات الرئيسة في الحياة الفكرية والأخلاقية التي يعبر عنها الأدب، فتحديد الحالات التي تختلف بواسطتها الآداب وتنفصل بعضها عن بعض، والحالات المشتركة والمتعاقبة في الفكر والفن لدى الحضارات المتشابهة، ودراستها يعزز من فهمها وتشكيل وعي شامل عنها.

٤- يساعد في تتبع الواقع الأدبي عن كثب، وكتابة تاريخ دقيق للاتجاهات الأدبية والأشكال الفنية، فلا يمكن تحقيق فهم أمثل لها، في تفصيلاتها اللامتناهية ومظاهرها القومية المتعددة، إلا إذا درست قبل أي شيء، بشكل عام في ضوء حضورها في الآداب العالمية. وهو ما سيعزز من جانب آخر الشعور بوجود الروابط الروحية والمشاركات الإنسانية الكبيرة بين الناس، ويمهد لحياة تتعايش فيها الأجيال معاً بألفة وحميمية.

وحين يتوقف رينيه ويلك عند مفهوم الأدب المقارن والعام، فإنه يرى أن من الحتمي التداخل ما بينهما في الموضوعات وغيرها، ويدعو إلى دراسة الأدب ككل، ومتابعة نموه وتطوره من دون اعتبار

(٤) ينظر: المصدر السابق: ١٩٧ و ما بعدها .

(٥) ينظر: الأدب المقارن: فان تيغم: ١٨٠ و ما بعدها.

لفوارقه اللغوية. وهذا ما سيوفر فرصة لإعادة كتابة التاريخ الأدبي، كما يرى، على وفق منظور متسع، يرتفع فوق القوميات والانحياز المحلي أو الإقليمي.^(٦)

ويختلف إلكساندر ديبا مع فان تيغم حول جدوى التفريق ما بين الأدب المقارن والأدب العام، فهو لا يرى ((ضرورةً لتكوين العلم الجديد الذي يتحدث عنه بول فان تيغم))^(٧)، وأن آراءه حول خصوصية مجال الأدب العام لم تحصل على قبول وتأييد في أوساط المقارنين، غير أن ديبا لا يقبل من جانب آخر ضم الأدب المقارن الذي يعنى بالعلاقات الثنائية إلى دراسة العلاقات المباشرة بين الآداب العالمية، وبذلك يكون مختلفاً مع آراء المدرستين، ليسجل رؤيته في النهاية من أن ميادين علم الأدب المقارن يجب أن تسير في ثلاثة اتجاهات أساسية:^(٨)

١- في مجال العلاقات المباشرة بين الآداب .

٢- مجال المتشابهات المنظمة (النمطية على وفق رؤية المدرسة السلافية)

٣- مجال إبراز الملامح الخصوصية لكل أدب من الآداب

ويرى ديبا في هذا المجال الأخير أهمية كبيرة في الأبحاث المقارنة، فهو من المميزات المهمة لعلم الأدب المقارن، الذي يجب ألا يهمل إبراز الصفات الخصوصية للأدب القومي.

(٦) ينظر: مفاهيم نقدية : ٣٦٢

(٧) مبادئ علم الأدب المقارن : ١٦٦

(٨) ينظر: مبادئ علم الأدب المقارن: ١٦٦- ١٦٧